عبدالرحمن بن الهيثم

طليعة الأطباء النباتيين في الأندلس

فاضل السباعي

أستهل حديثي عن الطبيب القرطبي ، العالم ، عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ، فأزعم أنه قد جار عليه اثنان من علماء بلده الأندلس ، وذلك حين أرّخا للأطباء والعلماء في زمنه ، وأهملا الترجمة له ! ... حتى إذا لاح اهتمام ما به ، في الأعصر التالية ، ناله ، في زماننا نحن ، إهمالٌ جديد على يدي اثنين من مؤرخي الأعلام ، في هذا القرن العشرين !

فأما المؤرخان الأندلسيان ، فأولهما بلديُّه وعصريُّه سليمان بن جُلجُل القرطبي في كتابه « طبقات الأطبّاء والحكماء » ، والآخر هو المؤرخ اللاحق لجيله القاضي صاعد الطليطلي في كتابه « طبقات الأمم » .

وأما مؤرخا القرن العشرين ، فهما الشاميّان : خير الدين الزركلي صاحب موسوعة « الأعلام » ، وعمر رضا كحّالة صاحب « معجم المؤلفين » ، طيب الله ثراهما وهما اليوم في جنان النعيم[1] .

---

١ ـ توخياً للدقة أبين أن أول المؤرخين الأندلسيين ، ابن جُلجل ، قد أتى على ذكر طبيبنا الرائد ابن الهيثم ، تعداداً بين « نفر من الباحثين عن أسماء عقاقير ديسقوريدس » ، أولئك الذين عملوا في صحبة الطبيب الراهب نقولا القادم من القسطنطينية ، فأتيح لهم أن يُصححوا أسماء هذه العقاقير بالعربية ، وأن يقفوا على ماهيتها (على نحو ما نُبين أدناه) ... فكانت فائدة جليلة نعم الطب بها ، طوال القرون الخمسة التالية من عمر الإسلام في الاندلس .

أولاً : الرجل والعصر

١ ـ العصر :

إذا كان إقبال الأندلسيين على الطب ، تعلماً وممارسة وتفوقاً ، قد أخذ يعطي ثماره بدءاً من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، فإن هذا الازدهار قد اقترن بعنايتهم الفائقة بالطب النباتي على وجه الخصوص .

وآية ذلك أنّ أمويي الأندلس ، بعد أن استتب لهم الحكم في الداخل ، في النصف الأول من القرن الرابع خاصة ، وخضعت لهم رقابُ الأعداء وراء الحدود ، التفتوا إلى العلوم والآداب ، فاستجلبوا ، من مشرق العالم الإسلامي ، مئات الكتب والمصنفات . ولكن بدا أن علاقة ما قد قامت ، في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر (حكمه : ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) ، بينه وبين القسطنطينية ، حين أوفد إليها سفارة في سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ، فرد إمبراطورُها بسفارة مثلها إلى قرطبة سنة ٣٣٧ (٩٤٩) حمّلها كتابين هما : تاريخ « هروشيوش » (باللاتينية) ، و « حشائش » ديسقوريدس (بالإغريقية) .

وقد كان ميسوراً للأندلسيين أن يُعرّبوا الكتاب الأول ، فإن بينهم كثيراً ممن يعرفون اللاتينية ويتقنونها . إلا أن نقلهم الكتاب الآخر عن الإغريقية كان متعذراً . ولقد فطن المُهدي قسطنطين السابع[1] ـ وكان عالماً معنياً بالتاريخ ـ إلى هذه المسألة ، فقال في خطابه إلى عبدالرحمن الناصر (كما روى ابن جلجل) :

---

١ ـ وليس أرمانيوس (رومانوس) ، كما ورد في المصادر العربية ؛ ذلك أن القائد العسكري « ليكابينوس رومانوس » ، المتسلط على الإمبراطور الشرعي قسطنطين ، كان قد عُزل سنة ٩٤٤ م (٣٣٢ هـ) ، قبل أن يقضي في منفاه في ١٥ حزيران ٩٤٨ م (٤ ذي الحجة ٣٣٦) . انظر : الدكتور السيد الباز العريني : « الدولة البيزنطية » ، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨٢ ، ص ٤٠٩ .

« إن كتاب ديسقوريدس لا تُجتنى فائدته إلا برجل يُحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية . فإن كان في بلدك من يُحسن ذلك فُزتَ ، أيها الملك بفائدة الكتاب ... » !

ويتابع ابن جلجل روايته :

« فلما جاوب الناصرُ أرمانيوس الملك ، سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالإغريقي واللطيني ... »[1] .

ثم كان على علماء قرطبة أن ينتظروا سنوات ثلاثاً إلى يوم يقدم إليهم موفدٌ من القسطنطينية ، هو الطبيب الراهب نقولا ، الذي كان يتكلم الإغريقية (اليونانية القديمة) لغة ديسقوريدس ، فضلاً عن إتقانه اللاتينية الشائعة بين نصارى الأندلس وغير قليل من مثقفي مسلميها .

وبوصول الطبيب القسطنطيني قام « نفرٌ » من الأطباء والعلماء في قرطبة[2] ، ممن كان « لهم بحثٌ وتفتيش وحرص على استخراج ما جُهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية » ، وهم : حسداي بن شبروط الإسرائيلي (وكان مُقرباً من الناصر) ، ومحمد المعروف بالشجّار ، والبسباسي ، وأبو عثمان الجزار ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ، وأبو عبدالله الصقلي .. قام هؤلاء بمهمة مراجعة الكتاب، والوقوف على ماهية العقاقير المذكورة فيه ، وتسميتها بالعربية.

---

١ – ابن أبي أصيبعة : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » (نقلاً عن ابن جلجل) ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ببيروت (دون تاريخ) ، ص ٤٩٤ .

وللحقيقة ، لقد كان تعريب كتاب الحشائش قد تم ـ قبل ذلك التاريخ بمئة سنة ـ في عاصمة العباسيين أيام المتوكل (المتوفى ٢٤٧ هـ) : قام بذلك اصطفن بن بسيل وأجازه أستاذه الطبيب حنين بن إسحق . ولكن النص العربي جاء قاصراً ، بسبب إخفاق المترجم في أن يجد دائماً المقابل العربي لأسماء العقاقير والنباتات الإغريقية !

٢ – النفر : ما دون العشرة من الرجال ؛ وذلك ما يمكن أن نطلق عليه ، هنا ، بلغة عصرنا : اللجنة ، أو فريق العمل !

إن هذه المعلومات المتعلقة بوصول كتاب ديسقوريدس إلى قرطبة ، ثم استدعاء مَنْ لغتُه الإغريقية من القسطنطينية ، وما أسفر عن ذلك من مراجعة الكتاب وفهم محتواه ... كان يُتوقع لهذه المعلومات المهمة ، أن تضيع في زحمة التاريخ ، لولا أن قيدها لنا معاصرُ تلك الحقبة ، سليمان بن حسّان بن جلجل[1] .

وعلى ذلك فإن ابن جلجل ، صاحب « طبقات الأطباء والحكماء » ـ الكتاب الذي استوعب تراجم عديدة لأطباء أندلسيين ولغيرهم ـ كان هو وطبيبنا ابن الهيثم متعاصرين ، وقد أظلتهما ـ بعد عصر عبدالرحمن الناصر ـ أيامُ ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) ، وبعد هذا عهدُ ولده هشام المؤيد بالله !

فكيف يسوغ أن يُغفل ابنُ جلجل ـ وهو المؤرخُ العارف والطبيب العالم ـ التعريف بمعاصره الطبيب الرائد في علم العقاقير والنباتات الطبية عبدالرحمن بن الهيثم ؛ على حين يورد في كتابه هذا ، أخباراً عن أطباء لم يُعرفوا بالريادة ، ولا وُصفوا بالتفوق ، ومنهم من أضربت المصادر التاريخية عن ذكره ، بعد ابن جلجل ، فلم تتحدث عنه البتة ؟!

٢ ـ ملامح من شخصيته :

ومع أن المصادر التاريخية التالية على عصر ابن جلجل ، لم تكن بأكرم منه بالمعلومات المتصلة بطبيبنا عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ؛ إلا أننا نستطيع ـ بالضئيل الذي قدمته لنا المصادر ـ أن نرسم خطوطاً لشخصيته ، مستكملين ملامح صورته من خيال مستمد من الواقع ، في محاولة لتقريبها من الذهن والإحساس !

---

١ ـ يُعد ابن جلجل (المولود بقرطبة سنة ٣٣٢ هـ) من أبرز أطباء الأندلس . له مؤلفات في المفردات النباتية . على أن شهرته الواسعة ، اليوم ، تقوم على كتابه التأريخي المهم : « طبقات الأطباء والحكماء » !

وقد أعددت بحثاً مستفيضاً بعنوان : « الطبيب القرطبي ابن جلجل وعصر ازدهار الطب في الأندلس » ، قدمته في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب (طرطوس ، أيار ١٩٨٩) .

وفي شأن التحقيق في تاريخ وفاته ، انظر الحاشية ٣ ص ٣٣ .

نقدّر ، أولاً ، أن أبا إسحق كان ـ حين التقى بالراهب نقولا سنة ٣٤٠ هـ ـ في نحو الأربعين من عمره ، سن النضج العلمي والاكتمال العقلي ، بدليل اختياره عضواً في « اللجنة » العلمية المتعاونة مع الطبيب نقولا ؛ فهو إذن ، من مواليد أوائل المئة الرابعة للهجرة (٩١٤ م وما حولها) ، ولعله ولد قبل ذلك !

ونرى أنه كان يعرف اللاتينية ، اللغة المشتركة مع الطبيب نقولا ، وإلا استحال إسهامه في مراجعة كتاب ديسقوريدس !

وهذا يقودنا إلى أن نفترض ـ بحذر ـ أنه من طائفة « المُوَلّدين » ، المتنامية في المجتمع الأندلسي ، والتي وسع النظام الإسلامي لها فرص العمل والنجاح وارتقاء المناصب[1] .

ولأنه أدرك الخليفة هشام المؤيد بالله (هذا الذي ابتدأت أيامُه بوفاة أبيه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ) ، بدليل أنه صنف كتاباً لحاجبه « القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر »[2] ، فإن ابن الهيثم يكون ، بذلك ، قد عُمِّر يقيناً ما يزيد على ستين عاماً !

وإذا كنا قد افتقدنا معرفة شيوخه وأساتذته ، الذين أخذ عنهم المعارف والعلوم في اللغة والفقه والطب ، فإن لنا أن نتصور أنه كان تلميذاً نجيباً ، ثم مصاحباً لمشاهير الأطباء الذين ظهروا أوائل القرن الرابع الهجري ، ونبغوا ، وتهيأ لبعضهم أن يخدم بالطب عبدالرحمن الناصر ... من هؤلاء :

١ ـ أصبَغ بن يحيى ، الذي ألف للناصر « حب الأنيسون » .

٢ ـ الجراح يحيى بن إسحق ، وقد استوزره الناصر .

٣ ـ سليمان بن باج ، الذي كان ضنيناً بنُسَخ أدويته على الأطباء[3] .

---

١ ـ المُوَلّدون : هم ذراري « المُسالمة » ، هؤلاء الذي ظلوا يدخلون الإسلام من نصارى الأندلس . ويؤيد افتراضنا هذا في ابن الهيثم ، أن المصادر لم تقرن باسمه إلا اسمي الأب والجد ، فلم تنسبه إلى أصل عربي !

٢ ـ ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ . وسيرد تفصيلٌ لذلك أدناه .

٣ ـ نُسخ الأدوية : هي « الوصفات الطبية » ، بلغة اليوم !

٤ ـ ابن أم البنين ، مُنادم الناصر .

٥ ـ عمران بن أبي عمر ، وقد ألف للناصر أيضاً « حب الأنيسون » وكان يحضر مجالسه .

٦ ـ سعيد بن عبد ربه ، الطبيب الأديب الشاعر ، الذي لم يخدم سلطاناً ! « له ، في الطب ، رجزٌ أحسنَ فيه »(١) .

٧ ـ عمر بن بريق ، الذي كانت له إلى القيروان (في تونس) رحلة ، لزم فيها الطبيب ابن الجزار ، ثم عاد إلى الأندلس وفي جعبته كتابٌ للطبيب القيرواني ، أو كتابان(٢) .

٨ ـ الطبيب نقولا الراهب ، القادم من القسطنطينية(٣) .

ونحسب ، أيضاً ، أنّ من أصحاب ابن الهيثم ، من قد تأخر سنّاً عن هؤلاء ، ومنهم مَن خدم بالطب الناصرَ ، ثم ابنه الحكم المستنصر ... ومنهم :

٩ ـ أبو الوليد الكتّاني ، الذي كان لطيفاً في علاج المرضى !

١٠ ـ محمد بن تمليخ التميمي ، له في الطب « كتاب الأشكال » .

١١ ـ أبو موسى هارون الأشوني ، الذي كان ممارساً للجراحة .

١٢ ـ أبو عبدالملك الثقفي، وقد تولّى خزانة السلاح على عهد الناصر ، ثم المستنصر .

١٣ ـ أحمد بن حفصون . خدم بالطب المستنصر .

١٤ و ١٥ ـ الأخوان أحمد وعمر ابنا يونس ، اللذان دخلا بغداد قبل أن ينصرفا إلى بلدهما الأندلس ... ثم التحقا بخدمة المستنصر .

---

١ ـ وهو ابن أخي أبي عمرو بن عبد ربه ، صاحب كتاب « العقد الفريد » .

٢ ـ إن مصدر معرفتنا عن هؤلاء الأطباء السبعة، هو ابن جلجل في كتابه « طبقات الأطباء والحكماء »، تحقيق فؤاد سيّد ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، طبعة مصورة ١٩٨٥ ، ص ص ٩٨ ـ ١٠٨ .

ويتضح بذلك ، مدى الحيف الذي أوقعه هذا الطبيب المؤرخ بمعاصره العالم ابن الهيثم ، حين ترجم لهؤلاء ولغيرهم ، وأضرب عن ذكره في كتابه التاريخي هذا !

٣ ـ والذي ظل في الأندلس إلى أن وافته المنية ـ حسب قول ابن جلجل ـ في صدر دولة الحكم المستنصر (التي ابتدأت في ٣٥٠ هـ) ، ابن أبي أصيبعة : ٤٩٤ .

١٦ ـ محمد بن عبدون الجبلي . دخل البصرة ، ثم نَبُل بالطب في الفسطاط (بمصر). خدم المستنصر ، ثم ابنه هشام المؤيد بالله[١] .

١٧ ـ حامد بن سمحون ، الطبيب النباتي .

١٨ ـ الجرّاح أبو القاسم ، خلف بن عباس الزهراوي[٢] ، الذي أثبتت الأيام أنه أعظم الجراحين في التاريخ !

١٩ ـ وذلك فضلاً عن سليمان بن حسّان بن جلجل ، الطبيب المؤرخ ، موضع الجدل في بحثنا ، صاحب « طبقات الأطباء والحكماء » .

٣ ـ المصادر التي أشارت إليه :

أقول : المصادر التي « أشارت إليه » ، ولم أقل : التي « تحدثت عنه » ... ذلك أن ما ورد في المصادر التاريخية عن ابن الهيثم ، لم يتعد « الإشارات » الصغيرة العابرة!

١ ـ وأول من أشار إليه هو معاصره ابن جلجل (المتوفى بعد ٣٩٩ هـ)[٣] !!

---

١ ـ وهؤلاء الثمانية ممن ترجم لهم ابن جلجل : ١٠٨ ـ ١١٥ .

٢ ـ ابن أبي أصيبعة : ٥٠٠ و ٥٠١ .

والطبيبان ، ابن سمحون والزهراوي ، هما ممن أغفل ابن جلجل الإشارة إليهما ؛ ومرد ذلك ـ بتقديرنا ـ إلى أنهما ـ وهما في مثل سنه أو أصغر قليلاً ـ لما يكونا قد نبغا في الطب بعد ، في السنة التي صنف فيها « طبقاته ... » (سنة ٣٧٧ هـ) ، وكان له من العمر ستةٌ وأربعون !

وسوف تكون لنا وقفةٌ عند كل منهما في بحثٍ مستقل !

٣ ـ ذهب محقق « طبقات .. » ابن جلجل ، في دراسته المستفيضة التي قدم بها تحقيقه العلمي الجيد ، إلى أن وفاة ابن جلجل كانت بعد سنة ٣٨٤ هـ ، لأسباب قدّرها ...

وأذهب ـ أنا كاتب السطور ـ إلى أنّ وفاته تأخرت عن ذلك إلى ما بعد ٣٩٩ هـ ؛ وذلك استناداً إلى عبارة وردت في « طبقات الأمم » للقاضي صاعد الطليطلي (ت ٤٦٢ هـ) ، تقول إنه كانت هناك ، « حتى آخر الدولة العامرية ، جماعة لهم نفوذ في صناعة الطب ... منهم : سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل » ، « طبقات الأمم » ، تحقيق حياة بوعلوان ، دار الطليعة ببيروت ١٩٨٥ ، ص ١٩٢ .

ومعروف أن « الدولة العامرية » ، التي أقامها محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) ، لم تنته بوفاته (٣٩٢ هـ) ، بل بمصرع ثاني ولديه ـ الذي تسلم السلطة بعد أخيه ـ عبد الرحمن ، سنة ٣٩٩ هـ !

ذلك أنّ معاصره الذي أغفل الترجمة له في « طبقاته » ، قد أتى على ذكره تعداداً بين أولئك « النفر » (اللجنة ، فريق العمل) من الباحثين عن أسماء العقاقير التي تضمنها كتاب ديسقوريدس ، وذلك في كتابه ـ كتاب ابن جلجل ـ الآخر ، الضائع معظمُه : « تفسير أسماء الأدوية من كتاب ديسقوريدس » .

وكانت العبارة :

و « من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب : ... عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ...»[1] .

وإنّها لأولُ « إشارة » تُسجل لابن الهيثم ريادته في الطب النباتي !

٢ ـ وفي القرن التالي (الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي) تأخذ « الحميّةُ » أديب الأندلس وفقيهها الكبير ، أبا محمد علي بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) ، فيكتب ـ إثر محاولة بعضهم في العُدوة المغربية أن يُضائلوا من شأن الأندلس علماء وأدباء ـ رسالته « في فضل الأندلس وذكر رجالها » ... ولم يغرُب عن بال ابن حزم بلديّه العالم النابه ابنُ الهيثم ، وقد مضت على وفاته عقودٌ من السنين ، فيقول مُفاخراً به ، في هذه العبارة الوجيزة :

« وكُتُبُ ابن الهيثم ، في الخواصّ والسموم والعقاقير ، من أجلّ الكتب وأنفعها »[2] !

---

١ ـ نقل ذلك ، عن ابن جلجل الأندلسي ، مؤرخ الأطباء الدمشقي ابن أبي أصيبعة ، في كتابه عيون الأنباء ... » : ٤٩٤ .

٢ ـ « رسائل ابن حزم » ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ، ٣ : ١٨٥ (سنة ١٩٨١) .

وقد نقل العبارة ، وبالأحرى نص الرسالة كاملاً ، المَقَّري (ت ١٠٤١ هـ) في كتابه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٩٦٨ ، ٣ : ١٧٥.

٣ ـ وبعد عقود من السنين أخرى ، ينقل هذه العبارة عن ابن حزم ، تلميذُه الحُميدي (ت ٤٨٨ هـ)، في كتابه « جذوة المقتبس » بعد أن يُقدم لها بأخرى ... يقول:

« ابن الهيثم : من المشهورين بعلم الطب والتقدم فيه . وله (كتب) في الخواصّ والسموم والعقاقير ، من أجلّ الكتب وأنفعها . ذكره أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم » (١) .

٤ ـ وبعد مئتين من السنين أخرى ، يُترجم له ، بإيجاز بالغ ، مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة الدمشقي (ت ٦٦٨ هـ) ، فيقول :

« عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم : من أعيان أطباء الأندلس وفضلائها ، وكان من أهل قرطبة . وله من الكتب : كتاب الكمال والتمام في الأدوية المُسهِلة والمُقيّئة ؛ كتاب الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد ؛ كتاب الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء ، صنّفه للحاجب القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر ؛ كتاب السمائم »(٢) .

---

١ ـ « جذوة المقتبس » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ : ٤٠٧ ؛ وقد وردت : وله (كتاب) ... فصححناها !

٢ ـ ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

وفي ترجمة بلديّنا الدمشقي هذه ، إضافات صغيرة ، لم يسبق أن وردت في المصادر الأندلسية المعروفة. ونرجح أنه استقاها من مصدر غير ما ذكرنا ، هو ذلك الكتاب الذي ألفه أندلسي وفد من مدينة « جيّان » الأندلسية إلى مصر في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) ، هو أبو يحيى ، اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي ، الذي استوطن ـ حسب رواية ابن الأبّار ـ الإسكندرية أولاً ، قبل أن يتوجه إلى القاهرة ، فيشتمل عليه الملك صلاح الدين ... له تاريخ سماه « المُغرب في محاسن المَغرب » . توفي بمصر سنة ٥٧٥ هـ . انظر : ابن الأبار : « المعجم في أصحاب ... الصّدفي » ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ : ٣٣٤ ؛ و «التكملة لكتاب الصلة » ، طبعة مجريط ١٨٨٧ : ٧٤٤ .

نرى ذلك ، لأن كتاب اليسع الأندلسي ، كان في جملة المصادر التي اعتمدها المؤرخ الدمشقي لدى تصنيفه موسوعته في تاريخ الطب . ومن المرات ، التي ذكر فيها مصدره هذا ، كان في ترجمته الموجزة للطبيب حامد بن سمحون (الذي أهملته أيضاً المصادر الأندلسية المعاصرة له ؛ وإنّ لنا دراسة عن شخصه وعلمه) ! .

٥ ـ ولعـــل آخر مـــن ذكره من القدمـــاء ، مستشهداً بعلمه ، هو بلديّه الأندلسي عبدالله بن البيطار (ت ٦٤٦ هـ) . ذلك أنه ـ في موسوعته النباتية : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ـ نقل عن ابن الهيثم، الذي سبقه بنحو ثلاثمئة سنة ، عدداً من مفرداته الطبية،أحصيتها فوجدتها ثماني (أعرض لها بالتفصيل أدناه)!.

وصمتتْ عن ابن الهيثم ، صمتاً كلياً ، كتبُ تراجم ، أندلسية مهمة ، هي :

ـ طبقات الأمم » للقاضي صاعد الطليطلي (ت ٤٦٢ هـ) .

ـ كتاب « الصلة » لابن بَشْكُوال (ت ٥٧٨ هـ)[١] .

ـ « التكملة لكتاب الصلة « لابن الأبّار (ت ٦٥٩ هـ) .

ـ وأمـا موسوعة التراجم الأندلسـية الكبرى : « الذيل والتكملـة ...» ، ذات الأسفار الثمانية ، لابن عبدالملك الأنصاري (ت ٧٠٣ هـ) . فقد كان الأمل أن نجـد ترجمة لطبيبنا في سِفْرها الرابـع ... إلا أن مخطوطـة هذا السـفر ـ الوحيدة الباقية حتى أيامنا ، والتي تم تحقيقها مؤخراً ـ كانت « قطعة » من السفر لا كله ، فغاب موضع الترجمة في ما ضاع من أجزائه ... وهذا من سوء الطالع أيضاً[٢] !

وفي العصر الحديث ترجم له المستعرب الفرنسي الطبيب لوسيان لوكليـرك Lucien Leclerc (١٨١٦ ـ ١٨٩٣)، في كتابه « تاريخ الطب العربي »، حيـث رجع إلى حديـث ابن جلجل عنه ، فقال : إنـه « كان في عداد الأطبـاء المكلفين بمساعدة الراهب نقولا في تعيين النباتات المذكورة في كتاب ديسقورديس » ، وأدرج أسماء كتبه نقلاً عن ابن أبي أصيبعة ، وأشار إلى نقول ابن البيطار منه في كتابه « جامع المفردات ... »[٣] .

---

١ ـ قسمان ، في مجلدين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٦ .

٢ ـ « الذيـل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة » ، السِّفْر الرابـع تحقيق الدكتور إحسـان عباس ، دار الثقافة ببيروت (١٩٦٤ ، تاريخ المقدمة) .

٣ ـ Lucien LECLERC: Histoire de la médecine Arabe (2T.), Paris 1876, Réédité Rabat (الرباط) 1980, 1:430.

وأما « أعلام » الزركلي و « معجم المؤلفين » لكحالة ، فلعل إغفال المؤلفين الترجمة له مرده إلى أنه كان من شرط موسوعتيهما تحديد واحد على الأقل من تاريخَي الولادة والوفاة للمترجَم لهم ، ولما كان التاريخان معاً مجهولين في شأن ابن الهيثم ، فضلاً عن ضآلة المعلومات عنه ، فقد أضربا عن ذكره !

٤ ـ مؤلفـــاتـــه :

في ما أشار إليه ابنُ حزم الأندلسي ، وما عدده ابن أبي أصيبعة الدمشقي ، من مؤلفات أبي إسحق بن الهيثم ، نجد أنها أربعة ، هي :

أ ـ كتـاب « الكمال والتمام في الأدويـة المسهلة والمقيئة » ، انفرد بذكـره المؤرخ الدمشقي[١] .

ب ـ كتاب « السموم » عند ابن حزم، و « السمائم » عند ابن أبي أصيبعة [٢] .

جـ ـ كتـاب « الاكتفاء بالدواء من خـواص الأشياء » ، سماه بذلك ابن أبي أصيبعة ، في حين أشار إليه ابن حزم على أنه كتاب في « الخواصّ »[٣] .

---

١ ـ ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

٢ ـ « رسائل ابن حزم ... » ٣ : ١٨٥ ؛ وابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

٣ ـ ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ ؛ « رسائل ابن حزم ... » ٣ : ١٨٥ .

وخواص العقاقير هي قواها التي تؤثر في الأجسام . وقد أسرف الأطباء القدامى في بيان مثل هذه الخواص ، في كتب أفردوها لذلك ، تدور حول الفوائد التي تُجنى من بعض العقاقير ، حتى دخلوا حدود الخرافة !

ويضيف ابن أبي أصيبعة أن ابن الهيثم صنف كتابه هذا « للحاجب القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر » .

وابن أبي عامر هذا هو من عُرف في التاريخ بـ « الحاجب المنصور » ، الذي تسلط على ولد الحكم المستنصر : هشام المؤيد بالله ، يوم آلت إليه الإمارة بعد وفاة أبيه في سنة ٣٦٦ هـ وهو غلام .

د ـ كتـاب « الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجـزار في الاعتماد » ، انفرد بذكره ابن أبي أصيبعة(١) .

ومن المؤسف أننا نفتقد اليوم هذه الكتب مطبوعة ؛ ونجهل ما إذا كانت مخطوطاتها موجودة في المكتبات العامة ، العربية والعالمية !

---

١ ـ ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

ويرى الباحث في تاريخ الطب العربي ، صديقي الدكتور مختار هاشم عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، أنه ربما كان في عنوان هذا الكتاب تحريف في الكلمتين الأوليين منه ، وتبديل في موضعهما ، فلعل الصواب : الإيجاز والاقتصاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد .

والطبيب القيرواني ابن الجزار (٢٧٨ ـ ٣٦٠ هـ) ، يُعد ثالث ثلاثة ممن نسميهم مؤسسي « مدرسة القيروان الطبية » (والأولان هما : إسحق بن عمران البغدادي ، ت حوالي ٢٧٩ هـ ، وإسحق بن سليمان الإسرائيلي المصري ، ت بعد ٣٤١ هـ) .

وقد لازم ابنَ الجزار ، في عيادته بالقيروان ، مدة ، الطبيبُ الأندلسي عمر بن بريق ـ المار ذكره أعلاه ـ فلما انصرف إلى بلده حمل معه نُسخة من كتاب أستاذه : « زاد المسافر وقوت الحاضر » ، ونرجح أنه عاد أيضاً بكتب أخرى له ، منها « الاعتماد في الأدوية المفردة » ، هذا الذي اتفق وصوله إلى قرطبة حين اشتغال ابن الهيثم بمراجعة « حشائش » ديسقوريدس ؛ فتعقبه طبيبنا النباتي ، وصنف كتاباً في ما وجده فيه من أخطاء ، في المفردات ، كانت فاشية بين الأطباء !

حول ابن الجزار ، انظر : فاضل السباعي : « الطبيب ابن الجزار القيرواني » (في حلقتين) ، مجلة « القافلة » ، العددان المتتابعان : شعبان ورمضان ١٤٠٧ (مارس وابريل ١٩٨٧) .

وفي مناقشة بحثي هذا ، عن ابن الهيثم ، في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب ، أعلن صديقي الباحث الدكتور محمد زهير البابا ، عضو مجمع اللغة العربية ، أنه ينبغي ألا نولي اهتماماً كبيراً لمسألة تعقب ابن الهيثم لأخطاء ابن الجزار في كتابه « الاعتماد ...» ، لأن الطبيب القيرواني كان عالماً كبيراً كثير التآليف ، على حين أن ابن الهيثم لم يؤلف إلا القليل وقد أهمله التاريخ .

قلت : إن ابن الجزار القيرواني كان عالماً قد تعددت مواهبه، فهو ألف في الطب والدواء (الصيدلة) وفي الأدب والتاريخ ؛ وأما معاصره ابن الهيثم القرطبي فقد عانى دراسة كتاب ديسقوريدس في نصه الأصلي ، وعرف ما جهل غيره من الأطباء ـ وذلك ما لم يُتح للطبيب ابن الجزار ـ ووقف علمه كله على الأدوية ، فهو ـ في مصطلح اليوم ـ « متخصص » في مضماره ، فيصبح سائغاً أن يتعقب المتخصص الأخطاء عند من لم يُدرك مثل تخصصه ، هذا فضلاً عن أن كتاباً لابن الهيثم في تعقب أخطاء الطبيب القيرواني مذكور في المصادر التاريخية وإن لم يصل إلينا نصه ، فهو حقيقة واقعة .

ثانياً : نموذج من علمه

٥ ـ « بخور مريم » ، خاص بابن الهيثم :

قلنا إن ابن البيطار قد نقل ، في كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية »[١] ، عن طبيبنا ابن الهيثم ، أو ذكر اسمه ، مرات ثماني ، هي ، على الترتيب الهجائي الذي اتبعه في موسوعته : بخور مريم ، جوز الرقع ، جوز القيء ، حِرْذَوْن ، دند ، عقرب ، كَبابة ، كمّون ... معظمها مفردات نباتية ، واثنتان حيوانيتان ، وليس بينها مفردة معدنية[٢] .

وقد جرى ابن البيطار عل أن يُدرج ، تحت كل مفردة ، ما توافر حتى عصره من المعلومات عنها ، ناسباً كل نص إلى صاحبه بأمانه ملحوظة . وقد تعز المعلومات فما يملك منها في مفردة ما ، سوى نص وحيد ... من ذلك ما سماه « بخور مريم آخر » ، وكان النص الوحيد المدرج تحته لابن الهيثم !

وَصِفة « بخور مريم » الأول ، المعروف لدى القدماء ، كما حلّاه ديسقوريدس أن في ورقه آثاراً « لونها إلى البياض » ؛ وله « ساقٌ طولها أربع أصابع ، عليها زهرٌ شبيه بالورد الأحمر وفي لونه فرفيريّة ؛ وله أصلٌ أسود ، شبيه في شكله بالشّلْجَم ، إلى العرض مائل ... »[٣] .

---

١ ـ طبعة مصورة بالأوفست (دار المدينة ؟ ، د . ت) ، عن طبعة بولاق ١٢٩١ هـ (١٨٧٥م) .

٢ ـ تتكـون الأدوية المفردة Simple (غير المركبة) ، من أصناف ثلاثة : نباتية ، وحيوانية ، ومعدنية ؛ ويسمى النباتي منها : « العقاقير » ، التي تكون ورقَ النبات ، أو بزوره ، أو أصله (جذره) ، أو قضبانه ، أو زهره ، أو ثماره ، وقد تكون جملة النبات كما هو .
« القانون في الطب » ، دار صادر ببيروت (د . ت) (طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٢٩٤ هـ) ١ : ٢٣٨ .

٣ ـ « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ١ : ٨٤ .
واللون الفرفيري هو اللون الأحمر القانئ جداً .
والشلجم (أو السلجم) من الفارسية : اللفت .
ومثل هذا الوصف ، مع اختلاف يسير ، أورده الطبيب القوصوني المصري (كان حياً ١٠٤٤ هـ): « وبخور مريم نباتٌ ورقه كورق اللبلاب الكبير ، وفيه آثارٌ بيض ؛ وساقه صغير ، وعليه زهر كالورد الأحمر ؛ وأصله أحمر » ، « قاموس الأطبا وناموس الألبا » (جزءان) من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٩ و ٨٠ ، ١ : ١٥٣ .

ثم يعدد العشاب الإغريقي ديسقوريدس منافعه ، ومنها : أنه يُسهل البطن ، ويُدر الطمث ، وينفع من سموم الهوام ومن ضعف البصر ؛ وأصله يُنقي البشرة ، ويذهب بالبَثْر ، ويوافق النِّقْرِس ... ولا يفوته أن يقول : « وزعم بعض الناس أنه إذا تخطته امرأةٌ حامل أسقطت ؛ وإذا شُد في الرقبة ، أو في العضُد ، منع الحبل »[1] !

وقد رأى ابن البيطار في تحلية ابن الهيثم لهذا النبات (أي في وصفه له) ، وجهاً مخالفاً لتحليـة ديسقوريدس ، فأدرج بعد هـذه المفردة ، ما أطلق عليه « بخُور مريم آخر » ، مُتبعاً إياه نص طبيبنا الأندلسي :

« ابن الهيثم : هو نباتٌ ، له ورقٌ دقيق في صفة ورق الثيل ، وعُسلوجٌ في ارتفاع الذراع رقيق ؛ في أصل كل ورقة عُسْلُجٌ صغير ، وفي طرفه رؤوسٌ صُفر كأنها شعبةٌ من إكليل الشِّبْث ؛ وبزره كبزره »[2] .

ثم لم يُغفل تلك « الخاصة » العجيبة ، التي أشار إليها ديسقوريدس في بخور مريم ، الأول ، على سبيل الزعم ، فأوردها هو دون تحفظ : « وأصل هذا النبات إذا عُلِّق على المرأة منع الحبل »[3] !

---

١ ـ « الجامع ... » ١ : ٨٤ .

وأصل النبات (أو الشجرة) : أسفلها (جذورها) .

والبَثْر والبَثَر هو الخُرَاج الصغير .

والنِّقْرِس Goutte ، حسب تعريف القوصوني : « وجعٌ وورم يحدث في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، ولا سيما مفصل الإبهام » ، « قاموس الأطبا ... » ١ : ٢٢٢ .

ويعزو ابن زُهر بعض أسباب النقرس « إلى من التزم المشي على غير اعتياد » ، ويقول : « وقلما رأيتُ من عَيشُه من المشي إلا مُنَقْرَسا » ! ، « التيسير في المداواة والتدبير » ، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري ، من منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليكسو) تونس ، مطبعة دار الفكر بدمشق ١٩٨٣ ، ص ٣٧٦ .

٢ ـ « الجامع ... » ١ : ٨٥ .

والثِّيل ، والثَّيِّل ، هو النجم ، والنَّجيل ، والنجير ، « الجامع .. » ١ : ١٥٣ ... نباتٌ عارض مُضرّ ، من الفصيلة النجيلية .

والعُسلوج ، والعُسْلُج : ما لان وأخضرّ من قضبان الشجر .

والشِّبْث : بقلةٌ سنوية من التوابل .

٣ ـ « الجامع ... » ١ : ٨٥ .

وعرّف مصطفى الشهابي ، من المعاصرين ، نوع بخور مريم الأول :

بخُور مريم ، شجرة مريم ، كفّ مريم ، عَرطَنيثا Cyclamen : هو السكُوكع ودُويك الجبل ، في بعض أنحاء الشام . جنس نباتات عشبية معمرة من فصيلة الربيعيات ، لها زهرٌ جميل ، تنبت برية في جبال الشام الغربية ، وتُزهر في أواخر الشتاء مع المُكحَّلة ، وتُزرع لزهرها[1] .

٦ ـ نوع من « الجَوْز » يحمل على التهوُّع :

وإذا كان ابن البيطـار قد نقل تحلية ابن الهيثم الوحيدة لنبتـة بخور مريم ، فإنـه ينقل ، في مفردة « جوز القيء » ، تحلية قال بها أندلسي آخر هو الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠ هـ) ، المتأخر حقبة عن عصر طبيبنا أبي إسحق :

« الشريف : (جوز القيء) هو ثمرةُ شجر ، يكون نباته في سروات اليمن فقط؛ وقدره على قدر البندق ، بل أعظم منه بقليل ؛ في جوفة شبيهُ حُجُب ، بين الحجاب والحجاب حبة شبيهةٌ بحب الصنوبر الكبير ، وفيها بعض النَّتْن »[2] .

ولقد حلى أبو جعفر الغافقي (ت بعد ٥٦٠ هـ) هذا الجوز ، فقال :

جوز القيء : « ويسمّى جوز الرّقع يُؤتى به من اليمن . وقيل إنه ضربٌ من الحُمّاض . وهو أكبر من البندق قليلاً ، لونه بين الصفرة والبياض فيه تحزيز »[3] .

---

١ ـ « معجـم الشـهابي في مصطلحات العلوم الزراعيـة » (إنكليزي ـ عربي) ، إعـداد أحمد شفيق الخطيب ، مكتبة لبنان ببيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ .

٢ ـ « الجامع ... » ١ : ١٧٦ .

وسَرَاة كل شيء : أعلاه ، ج سَرَوات . وسروات اليمن : مرتفعاتها !

٣ ـ « منتخـب جامع المفردات للغافقي » حقق نصه العربي وترجمه إلى الإنكليزية : ماكس مايرهوف وجورج صبحي (نقلاً عن « المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية » ، جزءان ، تأليف إبراهيم بن مراد ، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥ ، ٢ : ٣٣٠) .

والحُمّاض : نباتاتٌ عشبية من فصيلة الحُمّاضيات ، وهي أنواعٌ تنبت برية ، ويزرع بعضها . ويقال لها في جوف الأترُج (الكبّاد ، بعاميّة الشام) : حُمّاض .

ويلاحظ أنّ الغافقي قد جعل جوز القيء وجوز الرقع واحداً !

وبعد خمسمئة سنة أخرى ، يُعرّف به أبو القاسم الغسّاني الشهير بالوزير (ت ١٠١٩ هـ) ، فيقول :

« جوز القيء : هو ثمرُ شجرة تنبت بالسودان ؛ لونه أبيض إلى الصفرة ، أعظم من البندق ، ويسمى بجوز قاتل ـ يعني : لمن أكله بقوة ـ ويسمى بجوز الدفع ، لدفعه بالقيء والإسهال »[1] .

وأما نصّ عبدالرحمن بن الهيثم ـ الذي نحسب أن ابن البيطار قد استمده من كتاب طبيبنا : « التمام والكمال في الأدوية المُسهلة والمُقيئة » ـ فكان بياناً بالكيفية التي يكون بها استعمال هذا العقار ... يقول :

« ابن الهيثم : إذا شُرب (من جوز القيء) وزن درهم كيلاً بوزن مثقال من الأنيسون المسحوق ، أو بزر الرازيانج ، وعُجن بكفاية من العسل ، وشُرب منه بماء حار ، هيّج القيء ، وقيأ فضولاً مِرّيّةً وبلغميّة . ويُسهل أيضاً من أسفل ، على قدر القوة والفصل والطبع »[2] .

وفي المصادر العلمية الحديثة : جوز القيء Strychnos nux-vomica : شجرٌ طبي عظام ، من فصيلة اللوغانيات ، يُستخرج منه الإستركنين .

وقد عددت مصادر تراثنا الطبي أنواعاً من الجوز ، وبينت فوائدها تفصيلاً، منها: الجوز (مطلقاً ، أي جوز الأكل) ، وجوز بُوا (جوز الطيب) ، وجوز ماثل ، وجوز

---

١ ـ « حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار » ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥ ، ص ٧٨ . والغساني هو من سُلالة الأندلسيين الذين نزحوا عن الوطن الأم إلى العُدوة المغربية .

والمقصود بالسودان : ما يعرف اليوم بغربي إفريقية (قبل أن يختص القطر السوداني بهذه التسمية).

وتلاحظ تسمية الجوز بجوز الدفع على المجاز !

٢ ـ « الجامع ... » ١ : ١٧٦ .

والأنيسون (من اليونانية Pimpinella anisum) ، وهو اليَنْسون بعاميـــة الشام : نبتٌ ، بـزره من التوابل المشهورة ؛ والرازيانج (من الفارسية) : جنس بُقول ... وهما من الفصيلة الخيمية.

الخمس ، وجوز عَبهَر ، وجوز القطا ، وجوز الشّرْك ، وجوز الهند ، وجوز المرج ، وجوز الريح (أو الزنج) ، وجوز الأنهار وجوز الكَوثل ، وجوز أرمانيوس ، وجوز جُندُم ، وجوز أرقم ، وجوز السرو ، وجوز الطرفا ... فضلاً عن جوز القيء وجوز الرقع .

وقد ذهب ابن الهيثم إلى أنّ جوز القيء وجوز الرّقع واحد ... وهذا مذهبٌ ناقشه فيه ابن البيطار (على ما نُبين حالاً) .

٧ ـ حوار العلماء :

ومما يمكن أن نعُده « حواراً » بين العلماء ـ ليس ساعة يجتمعون وجهاً لوجه في مجالس العلم المعهودة ، بل هو الحوار الذي يجري بينهم في « مجالس التاريخ » المعقودة أبداً ! ـ هذا النص الذي نقله ابن البيطار (القرن السابع الهجري) عن ابن الهيثم (القرن الرابع) ، في مفردة « جوز الرّقع » : « وقال عبدالرحمن وحده : هو جوز القيء »[1] ! ... فإن ابن البيطار يقول مُفنّداً :

« وفي قوله نظرٌ ومطالبة (... فقد) ذكر أبو حنيفة الدِّينَوَري (ت حوالي ٢٨٢ هـ) أنّ طعم الرقع طعمٌ حلوٌ يُغتذى به ؛ وهذه صفةٌ بعيدةٌ من صفة جوز القيء جداً »!.

ثم نرى ابن البيطار يتلطف إذ يتلمس المُسوغات لمقولة ابن الهيثم :

« وعسى أن تكون هذه القوة تختلف في منابته ، فيكون منه ، لهذا ، السببُ المقيّيء وغيره ؛ أو يكون أبو حنيفة لم يقف على هذا من فعله ، أو وقف عليه ولم يذكره إذ لم يكن من عنايته »[2] !.

---

١ ـ والواقع ، أن عبدالرحمن بن الهيثم لم يكن وحده من قال بأن « الرقع » و « القيء » واحد ، بل تبعه في ذلك الغافقي (كما سلف بيانُه أعلاه) .

٢ ـ « الجامع ... » ١ : ١٧٦ .

وفي النبات المسمى « دَنْد » ، يقول ابن البيطار : « هو الخِرْوَع الصيني » ، ويضيف مخطِّئاً :

« وغلط من قال إنه الماهودانه ، كما قال ابن جلجل وابن الهيثم ! وأكثر أطباء زماننا هذا يغلطون في ذلك ! وقد ذكر (أطباءٌ ـ وعَدّد ثلاثةً من قدمائهم ـ) الدند والماهودانه بصنفين مختلفين »[1] .

وأما الماهودانه (والصحيح : الماهوبَذَانَه) فإن « تأويله بالفارسية (يقول ابن البيطار : هو) القائم بنفسه ، أي أنه يقوم بذاته في الإسهال » . وهو ـ عند ديسقوريدس ـ « نباتٌ يعده الناس من أصناف اليتوع ... وهذا النبات ـ كما هو ـ مملوءٌ لبناً » ؛ وبزره ـ عند جالينوس ـ « فيه خاصية قوة الإسهال »[2] .

٨ ـ تصنيف أنواع :

وغيـــر ما سبق ـ من مفـردات ابن الهيثم في « جامع .. » ابن البيطار ـ هنـــاك « الكَبَابــة » (فارسية ، والاسم العلمي Piper cubeba) . يعرّفهـا إسحق بن عمران (من المدرسة القيروانية) : هي « حبّ العروس ، ونعتها مثل نعت الفلفل، ولها أذناب، وأطرافها ولونها أصهب »[3] .

---

١ ـ « الجامع .. » ٢ : ٩٧ .

وقد وردت « التخطئة » ـ التي شملت ابن الهيثم ومعاصره ابن جلجل معـا ـ ابتداءً ، عند الغافقي (القرن السادس الهجري) ، « المصطلح الأعجمي ... » ٢ : ٣٨٣ و ٨٤ ؛ وعنه نقلها ابن البيطار دون أن ينسبها إليه !

والدند ، في تعريف القوصوني : « هو المعروف بحب الملوك ، وهو ثلاثة أصناف : صيني ، وشجري ، وهندي ؛ فالصيني كبير يشبه الفستق ؛ والشجري منقط بسواد ؛ والهندي يتوسط في القدر بينهما . والحبة تنقسم إلى نصفين ، وفيها لسان ... » ، « قاموس الأطباء .. » ١ : ١٢٩ .

٢ ـ « الجامع ... » ٤ : ١٢٢ .

ويذكر الشهابي : اليتّوع (من السريانية) هو القَرْبيُون Euphorbia ، يطلق على كل نبات له لبن دارّ . جنس نبات من فصيلة القربيونات ، فيه عدة أنواع ، لا كبير شأن لها في الزراعة . منها : الماهودانه E. lathyris ، والحِلْباب ، والشَبْرُم ، واللاعية ...

٣ ـ « الجامع ... » ٤ : ٤٨ .

ويأتي ابن الهيثم بإضافة ما :

الكبابة « صنفان : كبيرة وصغيرة . والكبيرة هي حب العروس ، والصغيرة هي الفَلْنجة »[1] .

وفي منافع الكبابة ، من كل صنف وتسمية ، يقول جالينوس إنها مدرة للبول ، ومنقية للكليتين من الحصى . وإذا أمسِكت في الفم ـ كما يقول الشريف الإدريسي ـ حسنت اللثات وعطرت الأنفاس[2] . وعند القوصوني ـ الذي يراها حباً يُجلب من الهند ـ هي من البخورات اليابسة التي تنفع مع غيرها من « السعال الكثير الرطوبة »[3].

و « الكَمّون » (والاسم العلمي Cuminum) ، عند ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) ، أصناف أربعة : كرماني ، وفارسي ، وشامي ، ونبطي[4] .

وفي تعريف الكمون ، عموماً ، يقول الغساني الوزير :

« من جنس الهدبات ومن ذوي الجُمم ، ويقع على نباتات كثيرة ، ولكن الأخص به هذا النوع الذي هو من التوابل ؛ له ورق لطيف رقيق كورق الشِّبث ؛ وزهره دقيق أبيض كزهر الكزبرة وهو معروف عند الخاصة والعامة »[5] !

---

١ ـ « الجامع .. » ٤ : ٤٨ .

وتدخل الفلنجة ، عند إسحق بن عمران ، « في الطيب .. وهي ، في صفتها ، مثل حب الخردل وأكبر ، لها عيدان صغار مثل العُقَد » ، « الجامع .. » ٣ : ١٦٥ .

٢ ـ « الجامع .. » ٤ : ٤٩ .

٣ ـ « قاموس الأطبّا .. » ١ : ٥٧ و ١٥٣ .

٤ ـ « الجامع .. » ٤ : ٨١ .

٥ ـ « حديقة الأزهار .. » : ١٤١ .

والجمم ، مفردها جمة ، وهي الشعر الكثير !

ويتابع الغساني معدداً منافعه وخواصه : « نافع من ذوات السموم والهوام ، مدر للبول والطمث ، يطرد الرياح ، ويحلل الصلابات . وإذا شرب بالماء نفع من الأمغاص والنفخ ، وإذا شرب بالخل نفع من الفُواق . مدمل للجراحات ، قاطع للرعاف إذا أدخلت منه فتيلة في الأنف . وعصارته تجلو البصر ، وتزيل الدمعة » .

ولكنّ ابن البيطار ينقل عن إسحق بن عمران ، أنّ هناك « كموناً أبيض »[1] ؛ كما ينقل عن طبيبنا عبدالرحمن بن الهيثم :

أنّ هناك الكمون الأسود ، و « هو البري ، الشبيه بالشونيز »[2] .

٩ ـ خواص الحِرْذَون والعقرب ، العجيبة !

قلنا : إنّ الأطباء القدامى قد أسرفوا ، أحياناً ، في الحديث عن خواص بعض العقاقير والمفردات الطبية ، حتى بلغوا حداً يمجه الذوق السليم . إلا أنّ ميل الإنسان الفطري إلى سماع الأعاجيب والتأثر بها ، كان يُزين لبعضهم ـ مع ما مُتّعوا به من الفهم والعلم ـ الكتابةَ في خواص تُثير الخواطر ، وتبعث الدهشة ، وتحمل على التعلق بآمال لا تعدو أن تكون أوهاماً !

وقد كان لابد لعبدالرحمن بن الهيثم من أن ينساق مع منطق العصر ، فكانت منه مفردات ـ ربما هي ما ضمه كتابه المسمى « الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء » ـ قد اجترح بعضها من خياله ، مثلما اقتبس من الأطباء السابقين عليه ، عرباً وأغارقة ، فزاد عليهم في ما اقتبس بحكم الانسياق[3] !

---

١ ـ « الجامع .. » ٤ : ٨٢ .

والكمون الأبيض أو حبة الحلاوة أو الحبة الحلوة (في المغرب) : هي الأنيسون (الينسون) .

٢ ـ « الجامع .. » ٤ : ٨٢ . وقد ورد الاسم محرفاً : عبدالله بن الهيثم !

ويقول ابن البيطار ، في مفردة « كمون أسود » : « هو الكمون البري على الحقيقة ؛ وقد يقال أيضاً على الحبة السوداء بالعربية وهو الشونيز » ، « الجامع .. » ٤ : ٨٣ .

والشونيز (فارسية) ، أو الحبة السوداء Nigella : جنس نباتات عشبية حولية ، فيه أنواع تزرع لحبها أو لزهرها ، وأنوع تنبت برية في الحقول . ومن الشونيز المزروع : الحبة السوداء N. sativa ، نوع يزرع للحصول على بزرته التي تسمى في مصر والشام ، بحبة البركة .

٣ ـ من ذلك ما بينا من قول ديسقوريدس عن نبات « بخور مريم » : وزعم بعض الناس أنه إذ تخطته امرأة حامل أسقطت ! وإذا شد في الرقبة ، أو في العضد ، منع الحمل » ! . فكان أن « تخطّى » طبيبنا ابن الهيثم « الزعم » إلى ما هو في حكم اليقين ، عندما قال : « وأصل هذا النبات إذا عُلّق على المرأة منع الحمل » ! ، « الجامع .. » ١ : ٨٤ و ٨٥ .

فعن دُوبيَّة « الحِرْذَوْن » - في موسوعة ابن البيطار - يقول « مهراريس ، في خواصه : إن عُلِّق قلب الحرذون على صاحب حُمّى الرِّبع في خرقة سوداء ، أبرأها وأزالها »[1] ! وأما ديسقوريدس فينقلون عنه : « خَرْء (الحرذون ...) يصلح لتحسين اللون وصقال الوجه والبشرة ؛ وأجود ما يكون من خَرْئه الشديد البياض .. وإذا خلط برطوبة انماع سريعاً ؛ وإذا فُرك فاحت منه رائحة إلى الحموضة ما هي ، فيها شيءٌ شبيه برائحة الجميز ! وقد يغشه قوم بخرء الزرازير التي تُعلف الأرزّ »[2] !

فجاء طبيبنا أبو إسحق بن الهيثم ، وزعم - وأمامه هذه « المقدمات » ! - في كتابه « الاكتفاء .. » :

---

١ - « الجامع .. » ١ : ١٨ .

وحُمّى الربع هي الحمى التي « تأخذ يوماً ، وتدع يومين ، ثم تجيء في اليوم الرابع » ! ، حسب تعريف القوصوني ، ١ : ٢٥٥ .

ولا يرى الطبيب الأندلسي عبدالملك بن زُهر (المعروف بـ « الابن ») هذه الحمى خبيثة ، « وإنما شرها كله في عُسر نُضجها » ! ، « التيسير في المداواة والتدبير » : ٣٩٦ .

وعن الحُميات في نظر ابن زُهر - وهي : حمى يوم ، غِبّ ، وِرْد ، دموية ، رِبْع - انظر : فاضل السباعي : « الطبيب الأندلسي عبدالملك بن الفقيه محمد بن زُهر » من خلال كتاب « التيسير .. » (وهو جَدّ صاحب التيسير) ! ، « أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب » . (اللاذقية ، نيسان ١٩٨٦) ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨٩ ، ص ص ١٩٩ - ٢٢٥ .

وصِقال الوجه : صَقْله وجلاؤه !

والجُمّيز : شجر من الفصيلة الخُبزية (مثل شجر التين) ، يؤكل ثمره ، يكثر في مصر ، ويسمى أيضاً - عند القوصوني المصري - بـ « التين الذكر ! » ١ : ٢٠٤ .

٢ - « الجامع .. » ١ : ١٨ .

وأما جالينوس فيقول : « قال قومٌ : دمه يُحِدّ البصر ! فتركتُ تجربته لقذره ، فإني قدرت على غيره من الأدوية التي امتحنتها لفعل ذلك ... » !

أنّ « جلد (الحِرذون) ، إذا أحرق وطُلي به إنسانٌ ، لم يخف ما يناله من الضرب والقطع »[1] !

وأما تعريف الحِرذون ، فهو :

عند الجاحظ : « دويبّة تشبه الحرباء ، تكون بناحية مصر وما والاها ؛ وهي دويبة مليحة ، موشاةٌ بألوان ونقط »[2] .

وفي معجم أمين المعلوف : « عَضْرَفُوط ، أم حُبَين ، حُبَيْنة ، حِرذَون Agama : جنس من العَظاء أعظم من العظاءة المعروفة في مصر بالسحلية وأضخم . يُعرف في مصر وسيناء بقاضي الجبل ، وفي جزيرة العرب بالحبينة . وهو أنواع كثيرة ، منها نوع يُعرف في الشام بالحرذون A. Stellio »[3] .

وعند الشهابي : حِرذون Agama Stellio ، جمع حراذين ، وتأتي بدال مهملة : دويبة ـ غير الوَرَل وغير الضب ـ قلما يزيد قدرها على ٣٠ سنتيمتراً . وهي كثيرة في الشام »[4] .

وفي « العقرب » ، تلك الدويبة الضارة[5] ، يقول ديسقوريدس : إذا أخذ نيئاً، ودُقّ ، وسُحق ووُضع على لسعة العقرب ، أبرأها ! وقد يُشوى ويؤكل ، فيفعل ذلك أيضاً » ! ويسترسل ابن سينا : « وأما رماد العقارب ، فيُدبّر بأن تطيّن قارورة ثخينة بطين الحكمة ، ثم يُجعل فيها العقارب في تنور حارة ، ليلةً أو أقل ، من غير مبالغة في الاحتراق ، ويُرفع من الغد ! والزجاج خيرٌ من الخزف الناشف الآخذ للقوة » ! .

---

١ ـ « الجامع .. » ١ : ١٨ .

أذكر أني عرفت ، وأنا على مقاعد الدرس بحلب ، تلامذة كانوا من المقصرين في دراستهم ، يزعُمون لزملائهم أنهم قد تصيدوا ، في ظاهر المدينة ، حردوناً ، فذبحوه ودهنوا أكفهم بدمه ، فيمتنع إحساسهم بالوجع عندما يتلقون من المعلم الضرب بالعصا على أيديهم !

٢ ـ « كتاب الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (د. ت) ، ٦ : ٥٨.

٣ ـ « معجم الحيوان » ، طبعة مصورة ، دار الرائد العربي ببيروت (د . ت) ص ٦ و ٧ .

٤ ـ معجم الشهابي : ١٢ .

٥ ـ كدتُ أعرّف العقرب فأقول ، على طريقة القدماء : « وهي معروفة » ! فوجدت صاحب « معجم الحيوان » قد سبقني إلى مثل ذلك ، يقول : « عقرب Scorpio ، مؤنثة، وهي أنواع كثيرة »! ص ٢٢٠.

ويزيد الشريف الإدريسي : « إذا سُحق العقرب محرّقاً ، وخُلط بمثل نصف وزنه خَرْء فأر ، واكتُحل به ، أحد البصر ، ونفع من جرب العين[1] ! ...

ويزعم طبيبنا أبو إسحق :

« إنْ أُخِذَت عقربٌ واحدة ، وقد بقي في الشهر ثلاثة أيام أو أربعة ، وجُعِلَ في إناء وصب عليها زيت ، وسد رأس الإناء ، وترك حتى يأخذ الزيت قوتها ، ثم يُدهن به مَنْ به وجع الظهر والفخذين ، فإنه يُبرئه . وقيل : إن طُلي من هذا الدهن على البواسير الظاهرة ، جففها وأسقطها . وإن أخذت عقربٌ ميتة وجُعلت في خرقة وعلقت على المرأة التي تُسقط أولادها ، لم يقسط الجنين وحفظه الله عليها »[2] !

فتُلغي خاصية العقرب ، ما سبق بيانه من خاصية الحِرذون ، في إسقاط الجنين !

---

١ ـ « الجامع .. » ٣ : ١٢٨ .

و « طين الحكمة » من الأطيان المركبة التي كان للقدماء اعتناءٌ عظيم بها ، كما يقول الطبيب الضرير داود الأنطاكي (ت ١٠٠٨ هـ) ، وكان « يُحتاج إليه ، في الطب ، لتوثيق آلات التقطير ، والطبخ به (...) ، وصنعته : طينٌ خالص جزءٌ ، فحمٌ مسحوق ، شعر مقصوص ، ملح مكنّس ، خَطْمي ، خبث الحديد ، كلس ، قشر البيض ، من كل نصفُ جزء ، يُنخل ، ويُعجن بالألعبة ، أو الخل ، أو اللبن ، عجناً مُحكماً ؛ وكلما تخمرت كانت غاية فيما يُراد منها ! .. » ، « تذكرة أولي الألباب .. » ، المكتبة الثقافية بيروت (د . ت) ، ١ : ٢٣٤ .

و « جَرَب العين » هـو ، حسب وصـف ابن زُهر الأندلسي : ما يظهر ، في باطن الجفن ، مـن « خشونة شبيهة بقشور التين » ، « التيسير .. » : ٤٩ . ويتعرّف الباحث الدكتور محمد ظافر الوفائي الاسم العلمي المعاصر لهذا المرض Trachoma ، « المهذّب في الكحل المجرب » ، لابن النفيس ، تحقيق الدكتور الوفائي والدكتور محمد روّاس قلعه جي ، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) ، (الرباط) ١٩٨٨ ، ص ٢٧٨ .

ولا يفوت مصنف « الجامع .. » ، وهو يستوفي هذه الخواص ، العجيبة ، أن يدلي بدلوه فيها ، يقول : « لي : إذا قُلِيَتْ عقرب في زيت حتى يحترق ، وطُلي بذلك الزيت موضعُ داء الثعلب ، أنبت فيه الشعر ، مجرّب » ! .

٢ ـ « الجامع .. » ٣ : ١٢٨ .

وبعد .

بهذه المعلومات الضئيلة عن ابن الهيثم ، وبيسير من علمه الذي توافر لنا اليوم ، اجتهدنا أن نرسم ملامح لهذا العالم الجليل ، الذي كان واحداً في تلك الطليعة التي أخذت على عاتقها ، في أندلس القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، أن تُراجع كتاب ديسقوريدس بلغته ، الإغريقية ؛ بل كان العالم الأقدر ، بين أنداده السبعة ، على التأليف والتصنيف ... وبعده توالى وضع الكتب والموسوعات في المفردات الطبية !

وأسمح لنفسي بأن أزعم ـ كرة أخرى ـ أنه كان ، حتى اليوم ، إذا ذُكر اسم ابن الهيثم ، تداعى إلى الخاطر شخص عالم آخر ، من المشرق ، هو : محمد بن الحسن بن الهيثم !

ولكني أحسب أنّ المهتمين بالتراث العلمي العربي ، سوف يميزون ، بعد اليوم ، ابنَ الهيثم الأندلسي ، الرائد في الطب النباتي ، من كنيِّه المشرقي عالم البصريات هذا الذي كان ـ بالمصادفة ! ـ معاصراً لطبيبنا ، مع سبق الأندلسي له في الولادة بنحو خمسين سنة[1] .

---

١ ـ أبـو علي ، محمد بن الحسن بن الهيثم ، ولد في سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، من أهل البصرة ، انتقل إلى الديار المصرية زمن الفاطميين ، وأقام بها إلى وفاته في نحو ٤٣٠ هـ .

يقول في حقه ابن أبي أصيبعة ، الذي أفرد له ، في كتابه ، ترجمة ضافية :

و « ... لم يماثلـــه أحدٌ ، من أهل زمانه ، في العلم الرياضي ، وكان دائم الاشتغال ، كثير التصنيف ... وخبيـــراً بأصول صناعة الطب ، إلا أنه لم يباشر أعمالها ، ولم تكن لـــه دربة بالمداواة ... » : ٥٥٠ .

مراجع البحث

أولاً : المصادر (مسلسلة حسب أزمان مؤلفيها) :

١ ـ الجاحظ ـ أبو عثمان ، عمرو بن بحر (توفي سنة ٢٥٥ هـ) : « كتاب الحيوان » (سبعة مجلدات) ، تحقيق عبدالسلام هارون ، الطبعة الثالثة ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ودار إحياء التراث العربي ببيروت (د . ت) مصورة عن الطبعة الثالثة ١٩٦٩) (المجلد السادس) .

٢ ـ ابن جُلجل ـ أبو أيوب ، سليمان بن حسان (ت بعد ٣٩٩ هـ) : « طبقات الأطباء والحكماء » تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨٥ (مصورة عن طبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥) ، مزيدة كتاب « تاريخ الأطباء والفلاسفة » لإسحق بن حنين (ت ٢٩٨ هـ) .

٣ ـ ابن سينا ـ الشيخ الرئيس أبو علي، الحسين بن علي (ت ٤٢٨ هـ) : «القانون في الطب » (ثلاثة أجزاء) ، دار صادر ببيروت (دون تاريخ) (طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م) (الجزء الأول) .

٤ ـ ابن حزم ـ أبو محمد ، علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ) : « رسائل ابن حزم الأندلسي » (صدر منها أربعة أجزاء) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ١٩٨٠ ـ ٨٣ (الجزء الثالث ١٩٨١) .

٥ ـ القاضي صاعد الطليطلي ـ أبو القاسم ، صاعد بن أحمد بن صاعد (ت ٤٦٢ هـ) : « طبقات الأمم » ، تحقيق حياة العيد بوعلوان ، دار الطليعة ببيروت ١٩٨٥ .

٦ ـ الحُمَيدي ـ أبو عبدالله ، محمد بن فتوح الأزدي (ت ٤٨٨ هـ) : « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ .

٧ ـ ابن زُهر ـ أبو مروان عبدالملك بن زُهر الأندلسي (ت ٥٥٧ هـ) : « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » ، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري ، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليكسو) بتونس ، مطبعة دار الفكر بدمشق ، ١٩٨٣ .

٨ ـ ابن بَشْكُوال ـ أبو القاسم ، خلف بن عبدالملك (ت ٥٧٨ هـ) : « كتاب الصلة » (قسمان) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ .

٩ ـ ابن البيطار ،ضياء الدين أبو محمد، عبدالله بن أحمد المالقي (ت ٦٤٦ هـ) : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (أربعة أجزاء في مجلدين) ، دار المدينة (د . ت) (مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥م) .

١٠ ـ ابن الأبّار ـ محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) : « التكملة لكتاب الصلة » (مجلدان) ، مجريط ١٨٨٦ و ٨٧ (المجلد الثاني) .

١١ ـ ابن الأبار (أعلاه) : « المعجم في أصحاب القاضي .. الصدفي » ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ .

١٢ ـ ابن أبي أصيبعة ـ موفق الدين أبي العباس ، أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ) : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ببيروت (د . ت) .

١٣ ـ ابن النفيس ـ علي بن أبي الحزم القرشي (ت ٦٨٧ هـ) : « المهذب في الكحل المجرب » ، تحقيق الدكتور محمد ظافر الوفائي والدكتور محمد رواس قلعـــه جي ، منشورات المنظمـــة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافـــة (ايسيسكو) (الرباط) ١٩٨٨ .

١٤ ـ ابن عبدالملك الأنصاري المراكشي ـ أبو عبدالله ، محمد بن محمد بن عبـدالملك (ت ٧٠٣ هـ) : « الذيل والتكملـة لكتابي الموصول والصلـة » (ثمانية أسفار ، المطبوع منها خمسة متفرقة) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس

والدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ببيروت وأكاديمية المملكة المغربية بالرباط ، ١٩٦٤ ـ ٨٤ (السفر الرابع ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ببيروت ١٩٦٤) .

١٥ ـ داود الأنطاكي ـ داود بن عمر (ت ١٠٠٨ هـ) : « تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب » (ثلاثة أجزاء) ، المكتبة الثقافية ببيروت (د . ت) (طبعة مصورة) .

١٦ ـ الغساني الوزير ـ أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم (ت ١٠١٩ هـ) : « حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقّار » ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥ .

١٧ ـ المقري التلمساني ـ أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ) : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » (سبعة مجلدات والثامن فهارس) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٩٦٨ ، (المجلد الثالث) .

١٨ ـ القوصوني المصري ـ مَدْين بن عبدالرحمن (ت بعد ١٠٤٤ هـ) : « قاموس الأطبا وناموس الألبا » (جزءان) ، من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٩ و ٨٠ .

ثانياً : المراجع

١٩ ـ « الدولة البيزنطية » : الدكتور السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨٢ .

٢٠ ـ « القاموس المحيط » : الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ) ، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ببيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ .

٢١ ـ « المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية » (مجلدان) : إبراهيم بن مراد ، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥ .

٢٢ ـ « معجم أسماء النبات » : الدكتور أحمد عيسى (ت ١٩٤٦) ، دار الرائد العربي ببيروت ١٩٨١ (مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٣٠) .

٢٣ - « معجم الحيـــوان » : أمين المعلوف ، دار الرائد العربي بيـــروت (د . ت) (طبعة مصورة) .

٢٤ - « معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية » (إنكليزي - عربي) : إعداد أحمد شفيق الخطيب ، مكتبة لبنان بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٢ (نواة المادة العربية في المعجم من وضع وتحقيق الأمير مصطفى الشهابي ، ت ١٩٦٨) .

٢٥ - Historie de la Médecine Arabe (2 T.) : Lucien LECLERC - (1816 - 1893) Paris 1876, Réédité Rabat الرباط 1980.